الفصل الثاني

البحث الأركيولوجي..
والإعلام الصهيوني

ومن الطبيعي والمفهوم أن التاريخ من المنظور الفلسطيني
قد ركز على العصر الحديث وعلى الكفاح لتحقيق كيان ودولة مستقلة.
ويبدو أن الماضي قد ترك للغرب ولإسرائيل،
كيث وايتلام.
وقد وافقوا - أي العرب - على التعريف بأنفسهم من قبل مراقبين أجانب،
لقد صدقوا بسهولة وعن طواعية الأحكام الجسورة المشهورة لمستشرقينا
الباحث الفرنسي بيير روسي

جاء في التوراة عدة نقاط ارتكاز تاريخية كانت قد تبنتها الجماعات العبرية، ومن بعدها اليهودية، ومن بعدها الصهيونية، لإثبات حقها في امتلاك أرض كنعان المقدسة، وكانت مرجعية إيلاف موسى هي الوعد الإلهي للآباء الأوائل الذي نص على أن أرض كنعان (المقدسة) هي ملك أبدي لبني إسرائيل على اعتبار أنهم شعب الله المختار المقدس.

أما في مرحلة السبي فكان مرجعية، وادعاء اليهود القانوني التاريخي في امتلاك أرض كنعان المقدسة، هي أنهم أصحاب مدينة أورشليم ومحيطها التاريخي، ولم يرتكزوا أبدا على الوعد الإلهي الذي كانوا قد استنفذوه في المرحلة الأولى، ولا على موسى، والذي لم يعد يذكر من قِبل التوراة بعد أسفار الخروج، بل حل مكانه داود وسليمان كمرجع عاطفي وتأريخي.

أما المرجعية في المرحلة الراهنة، والتي تبنتها الصهيونية فتعتمد على أن يهود العالم في القرن العشرين، هم أحفاد الأسباط الاثني عشر أبناء يعقوب (إسرائيل)، وبالتالي فهم أحفاد أبناء مملكة داود الموحدة (مملكة إسرائيل الموحدة)، وبالتالي فإن ليهود القرن العشرين، على اعتبارهم متحدرين من الأسباط الاثني عشر، الأسبقية التاريخية في تشكيل أول كيان وطني سياسي عسكري مستقل ذي سيادة في فلسطين (بلاد كنعان) في مرحلة الملكين داود - سليمان، وحدود مملكة داود تمتد من حدود سيناء جنوبا، مرورا بفلسطين،

وشرقي الأردن غربا، وجنوب لبنان، وجنوب سوريا، وصولا إلى قادش (جبل النبي مند) على نهر العاصي شمالا، وهذه الأسبقية التاريخية لمملكة داود تبرر طلب اليهود في أي مكان من العالم، للعودة إلى أرض كنعان، وإعادة تشكيل مملكة داود التوراتية في الوقت الراهن.

وقد تبنت الصهيونية، والفكر القومي الغربي الأوربي المسيحي التوراة كمرجع، أو وثيقة تاريخية لحل المسألة اليهودية التي تشكلت إبان المد القومي الأوربي، وما تلاه من رفض وكره لوجود الجماعات اليهودية التي كانت تقلق القومية الأوربية على أراضيها، وقد تقاطعت مصالح الصهيونية مع مصالح القومية الأوربية، والإمبريالية الغربية لحل المسألة اليهودية على حساب شعوب لم تكن قد سمعت بعد بتلك المسألة.

وقد تمت حياكة مؤامرة كبرى لاستيلاء الصهيونية (الجناح السياسي لليهودية العالمية) على فلسطين، وعلى هذا اندلع الصراع بين قوة البهتان الصهيوني، وضعف الحق العربي، ولم تسمح الصهيونية بوجود قاض واحد يشكل مرجعية ثابتة للفصل في هذا الصراع، فحينا تعتمد الصهيونية على هيئة الأمم المتحدة كونها قاضيا، ولكنها لا تتبنى من قراراته سوى ما يحقق لها مصالحها، وحينا على الرأي العام العالمي الخفي أو الضمني أو المعلن، وحينا على القوى العظمى كما كان عليه الحال في مباحثات السلام بين دولة إسرائيل والدول العربية، وفي النهاية فإن القاضي الرئيسي والثابت لها هو مصالحها وتطلعاتها الذاتية أو قناعاتها الخاصة، أما المدعى عليه فتحرص الصهيونية على تغييبه، وبذلك تدين تغيبه من جهة، ومن جهة ثانية تقوم بتشويهه، وتشويه خطابه الخافت، ليكون خطابها هو السائد على كل المنابر لتملي على العالم مقولتها وبالتالي تطلعاتها.

وبدل أن يُعَدّ القاضي أن التوراة هي أقوال المدعي، اعتبرها القاضي شاهدا على صحة الادعاءات الصهيونية التاريخية، وعلى افتراض أن التوراة اعتبرت شاهدا، فمن اليسر بالنسبة للمدعى عليه إثبات أنها شهادة غير نزيهة، لا لأنها طرف، بل من خلال تحليل تلك الشهادة المتناقضة، والمتراكبة، والمفككة، والتي تفتقد إلى أبسط درجات المصداقية، وهي إضافة إلى ذلك غير واعية وغير متوجهة للزمكان، فجغرافيا التوراة مشوشة، وأزمانها مركبة بشكل فسيفسائي، وعلى الرغم من ذلك فالقاضي الأوربي المسيحي قَبِل بها شهادة منزهة لا يرقى إليها الشك.

كما أن القاضي قَبِل بصك ملكية بلاد كنعان لبني إسرائيل الذي جاء في التوراة، دون أن يكون موقعا عليه بخط الرب يهوه الذي منحهم إياها، حسب ادعائهم، أو ممهورا ببصمة إبهام يده اليسرى، وحتى لو أتوا بصك وادعوا أنه موقّع بخط الرب، وأنهم وجدوا هذا الصك في سيناء، أو في بلاد كنعان، وادعوا أنها النسخة الأصلية التي كان قد أعطاها الرب يهوه لموسى على جبل سيناء، وحتى لو كان لهم ذلك، فكيف يستطيعون إحضار الرب إلى المحكمة كي يتم التحقق من تطابق التوقيع أو البصمة ما بين الصك، وما بين خط الرب، أو بصمة يده اليسرى، ولكن، وللطرفة، وتمشيا مع ما ذهبت إليه من أن الرب يهوه لم يكن سوى الفرعون المصري إخناتون، فقد يمكنهم البحث الآثاري من العثور على محنطته، أو على بقايا من عظامه، في سيناء، وقد تمكنهم الأبحاث الاستنساخية من استنساخ الرب يهوه، وإعادته إلى الوجود، وتقديمه إلى المحكمة لتتأكد من صحة صك الملكية، وحتى لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فإن الرب يهوه حينها سيصبح تحت المسؤولية القضائية، وهكذا

سيصبح الأمر فانتازيا، إذ كيف ستتم محاكمة السماء على الأرض، في الوقت الذي كانت الأرض، وما زالت، ستحاكم في السماء، وفيما لو تم هذا الافتراض الفانتازي فإن ذلك من شأنه أن يثلج صدر الباحث جورجي كنعان صاحب كتاب (من سيجرؤ على محاكمة الإله).

ولكن الصهيونية، إضافة إلى اعتمادها على التوراة كشاهد يثبت أن الجماعات اليهودية شكّلت مملكة داود، فإنها تفترض أيضا أن أول جماعة أو شعب يستطيع تشكيل كيان سياسي وطني جغرافي يكون له الحق الأبدي في هذه الأرض لإعادة تشكيل هذا الكيان في كل الأزمان، وبذلك يكون الحاضر إعادة تشكيل الماضي وتصريفه عبر الزمان (تحضير الماضي)، وقد ادعت الصهيونية من خلال التوراة أن لا تاريخ سياسي اعتباري لفلسطين (بلاد كنعان) قبيل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن اليهود هم من قاموا بتشكيل أول كيان سياسي له هوية يمكن اعتبارها عالمية في زمكانها، وأن مملكة إسرائيل الموحدة على عهد الملك داود كانت تمثيلاً سياسياً تاريخياً يكاتف أو يقف ندا أمام الممالك والإمبراطوريات في وسطها الزمكاني، وأن هذه المملكة استمرت في تواجدها الحضاري، بين تمدد، وتقلص، وارتفاع، ودنو، ولكن دون أي انقطاع حتى تم طرد اليهود منها قسرا، وظلما، وعدوانا في القرن الميلادي الأول، وأن الأوان قد آن لعودتهم إلى أرضهم التاريخية، لإعادة تشكيل كيانهم السياسي الحضاري.

كما ذكرنا عندما يحصل نزاع قائم على التاريخ، فإن الوثائق المقدمة لمنصب معروف ومتفق عليه أنه هو القاضي، تُعَدّ ادعاء، وعلى مدعيها إظهار البينات، والأدلة، والبراهين، كشهود غير مشكوك في صحة مقولاتهم، شريطة ألا يكونوا طرفا في النزاع، وكي تكون المحكمة نزيهة أيضا، ستعطي للمدعى عليه الحق في الدفاع عن نفسه ضمن الأصول والتقاليد المتبعة، كما أعطت الحق للمدعي مسبقا أن يرفع نصه الادعائي كما هو يرتئي، ويطرح وجهة نظره في حق مغتصب منه، ولكن في الصراع العربي الإسرائيلي - ولا سيما بعد قرار التقسيم - كان فيه المعتدي هو المدعي (ضربني وبكى، سبقني واشتكى)، والقاضي (الرأي العام العالمي - الغربي) يشكل طرفاً عاطفياً - دينياً - سياسياً لمصلحة الادعاء الصهيوني التوراتي، والذي قَبل بينات وأدلة مزورة، وملفقة من المدعي - المعتدي، والذي يريد بذلك التكتيك (أي رفع شكوى إلى الرأي العام وما يمثله من منظمات عالمية) الهروب إلى الأمام، وتظليل القاضي، والرأي العام العالمي، وإفهام العالم أن دولة إسرائيل مع الشرعية الدولية، وأن العرب هم من يقفون ضدها، وفي الوقت نفسه فقد حرم القاضي بالتآمر مع المدعي حق المدعى عليه - وهو المعتدى عليه أيضا - من الدفاع عن نفسه، ولمزيد من التآمر فقد حاول الأوربيون توظيف نتائج البحوث الأركيولوجية كشواهد إضافية لتأكيد الادعاء التوراتي.

ونظرا لخصوصية قضية الشرق الأوسط، وارتباط الغرب من خلال انتماءاته الدينية المسيحية، والقومية الاستعمارية الإمبريالية، ومن هذا الغرب المسيحي الإمبريالي، جاء البحث العلمي الأركيولوجي لينقب في أرض التوراة، لاكتشاف مملكة داود، وإخراجها، أو بعثها من تحت التراب (الماضي)، إلى شمس الواقع (الحاضر).

وإذا ما كان من الصعب فصل ذاتية الباحث الاجتماعية والدينية والسياسية (بطريقة واعية أو غير واعية) عن البحث العلمي المعرفي الإنساني على اختلاف أشكاله، مهما حاول الباحث أن يكون موضوعيا، فكيف يمكن أن تبرأ ساحة أي باحث مسيحي غربي من تأثير انتمائه الديني حتى لو كان ملحدا، ومن تأثير انتمائه إلى الغرب الذي ينظر إلى الشرق

من خلال مصالحه الاقتصادية، وحتى لو افترضنا جدلا وجود باحث موضوعي، ومنزه إلى أبعد درجة، فإن هذا الباحث سرعان ما يدخل المجال الكهرمغناطيسي السياسي، بحيث لا يجد مناصا من التخلي عن حياديته، ويصبح مستقطبا إلى أحد جهتي طرفي الصراع، وفي هذا السياق يقول د. أحمد يوسف داود في كتابه (تاريخ سوريا القديم) قائلا {إن من يدعي الوقوف في التاريخ على «الحياد» لا يكون «مؤرخا» بلا قضية فحسب، بل ومفتقرا إلى أدنى درجات الفهم للتاريخ، وإنه شاء أم أبى، اعترف أم لم يعترف، لا بد من أن يجد نفسه ملتزما أحد طرفي الصراع في العملية السياسية لهذا الشعب أو ذاك، سواء تجلت تلك السياسية عملا عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا محضا}.

ويمكن أن نأخذ مثالا على ذلك، الباحث المسيحي كمال الصليبي اللبناني الأصل، الأمريكي الجنسية، عربي الانتماء الروحي، وعربي الانتماء السياسي بالنسبة للصراع العربي الصهيوني، فعلى الرغم من تخليه عن انتمائه إلى التطلعات الأمريكية الغربية الإمبريالية، على اعتباره يحمل الجنسية الأمريكية، فإنه لم يستطع التخلي عن مسيحيته من خلال تنزيهه للنص التوراتي، واعتباره أن الخلل يعود إلى قراءة متحيزة للتوراة فرضتها يهودية السبي البابلي، وبذلك فإن الباحث كمال الصليبي لم يتخل عما فرضه عليه انتماؤه إلى مسيحيته، واعتبر التوراة نصا دينيا تاريخيا مقدسا، وأن اللبس يكمن في قراءة، وتفسير المتحول لهذا النص الثابت، كما أنه، بانتمائه لعروبته، فنّد المقولة اليهودية الصهيونية التاريخية التي تدعي أن أرض فلسطين هي المكان الذي تمسرح عليه التأريخ التوراتي.

لكل باحث هدف ما يسعى إليه، فهو، إما إنه يبحث عن الحقيقة، أو أنه باحث مرتزق، أي بمعنى أنه يقوم بعمل وظيفي ليتقاضى أجرا عليه من قِبل طرف ما، أو أنه باحث ينتمي إلى أحد الأطراف المتنازعة، وذو موقع ديني أو سياسي أو وطني أو اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي.

ثم من جهة أخرى، إن أي بحث تاريخي يحتاج إلى وجود بنية تحتية للبحث تتضمن التمويل، والرخصة بإجراء البحث، بما يتضمنه من حفريات في مواقع جغرافية تعود إلى طرف سياسي عسكري في الصراع، وكل قطب سياسي يريد ويأمل من الباحث أن يوظف اكتشافاته لمصلحة ادعاءاته، مع العلم أنه في هذه الحالة الخاصة فإن قوة القطبين المغناطيسيين، المتنافرين، المتنافسين، غير متعادلتين، بل إن الشحنة الكامنة في القطب الإسرائيلي لا يمكن مقارنتها من حيث القوة بالقطب العربي الضعيف جدا.

إن قوة الادعاء التوراتي كانت تهيمن على أي باحث آثاري يأتي إلى المنطقة، بحيث لا يستطيع أن يخلع عن حالته الذهنية المقولات التوراتية الإسرائيلية، فيخفق قلبه عند الدنو أو توقع اكتشاف أثري ما، قد يثبت، أو ينفي، أو يحتاد عن المقولات التوراتية، وإذا أضفنا أن ما من باحث قَدِم إلى المنطقة إلا وكان منضويا تحت جناح حماة الفكر التوراتي، نستطيع تفسير، وتعليل لماذا قام البحث التاريخي بالتركيز على المنطقة الجغرافية التي ادعت التوراة أنها قامت عليها مملكة إسرائيل التوراتية، أما زمانيا فعلى العصر البرونزي - الحديدي، وهو الزمان الذي ادعت التوراة أن مملكة إسرائيل الموحدة تشكلت فيه، وبمعنى آخر تم لوي رقبة الآثار لمصلحة التأريخ التوراتي الذي يُعَدّ منزها ومقدسا من حيث حقيقته التاريخية، وغاية البحث التاريخي هو إيجاد أيقونات لتوضع على جدران أوراق التوراة المقدسة.

لم تكن النتائج الأركيولوجية محط اهتمام نقاد التاريخ التوراتي، الذين كانوا يتخذون من النص التوراتي المادة التي يدرسون من خلالها التاريخ، وقلما كانوا يأخذون من النتائج الأركيولوجية مادة بحثية لهم، لا سيما بعد أن بدأت النتائج تتعارض مع المقولة التوراتية، وبينما أدار الكثير ظهورهم لها، كان البعض يشككون فيها، يقول درايفر {إن شهادة الأركيولوجي تكون أحياناً هي الشهادة الحاسمة في الموضوع.. ولكن كثيراً ما يساء فهمها وهذا أمر غريب}.

أما البعض الآخر فكانوا يرون ويؤكدون على أن الدراسات الأركيولوجية هي التي ستؤكد على صحة التاريخ التوراتي، وأن أي اكتشاف أثري يتعارض مع المقولة التوراتية هو مرفوض حتما، ولا يمكن قبوله على الإطلاق، وسيجدون من الحجج قصيرة النظر ما يكفي للتشكك فيه.

ويقول درايفر في كتابه (السلطان الأركيولوجي) {متى كانت شهادة الآثار شهادة مباشرة واضحة، فلا بد أن يكون لها أعلى مكانة في الحكم على الأمور حكماً حاسماً، وحتى لو كانت شهادة الآثار شهادة غير مباشرة ولكن فيها ما يكفي من الحقائق الموجزة، فهذا يجعل من شهادة الآثار أيضاً شهادة لها قيمتها}.

أما زينون كاسيدوفسكي فيقول في كتابه الواقع والأسطورة في التوراة {تكمن روعة الأرخولوجيا في أنها تجعل فجأة من رواية تاريخية ما، حقيقة علمية ثابتة، مبددة بذلك شكوكنا بصدد اعتبارها حقيقة أم أسطورة. وهذا ما حدث بالنسبة لرواية اغتصاب داوود مدينة أورشليم. فبفضل أحد الاكتشافات المثيرة أصبحنا الآن واثقين الثقة كلها من أن داوود قد احتل حصن اليبوسيين الحصين بل وغدونا نعرف كيف تسنى له ذلك وبأي أعجوبة.

ونحن نقول بالأعجوبة هنا عن سابق قصد لأن قلعة اليبوسيين تلك كانت تقوم على قمة منحدر صعب المنال وقد استطاعت أن تصد هجمات أعدائها على مدى أربعمائة عام. وتُعدُّ رواية التوراة عن احتلالها موجزة ومبهمة. فهي تفيد بأن يوآب استطاع أن يأخذ القلعة الجبلية: تسلل إلى داخلها عبر قناة سرية وهاجم اليبوسيين من الخلف}.

وهذا التبرير، والتفسير الساذج، الذي لا يحترم العقل، والذي يزاوج ما بين النص التوراتي، وما بين نتائج البحوث الأثرية الأركيولوجية التاريخية التي دائما يلوى عنقها لمصلحة التوراة، والتي يستنطقونها أحيانا حسب ما تصر عليه مقولات البحث الأركيولوجي، كثيرا ما يسوقه الباحثون الذين يتخذون من التوراة مرجعية تاريخية، ويتابع زينون هذا التفسير الساذج في كتابه سابق الذكر {كما واكتشفت أنقاض بيت شان حيث تهكم الفلسطينيون على جثة شاول وهزؤوا بها. فحسب التوراة علق رأس ذاك الملك التاعس في معبد داجون ووضعت عدته الحربية في معبد عشترتا وعلق جسده على سور المدينة. لقد بلغ ارتفاع الأنقاض ثلاثة وعشرين متراً. وكانت تتوزع على ثماني عشرة طبقة تنتسب إلى عصور مختلفة، ويعود تاريخ أُولى تلك الطبقات إلى الألف الرابعة قبل الميلاد. وهذا يعني أن بيت شان كانت واحدة من أقدم مدن كنعان. ولكن ما يثير اهتمامنا بشكل خاص أنه أكتشف في الطبقة التي تعود إلى عصر شاول أنقاض معبدين متجاورين هما معبد داجون ومعبد عشترتا اللذان تحدثت التوراة عنهما.

ولقد غدت حجارة هذين المعبدين شاهدة على آخر صدام وقع بين الإسرائيليين والفلسطينيين سقط فيه شاول وأولاده الثلاثة قتلى في أرض المعركة. ثم اكتشف

الأركيولوجيين من جملة ما اكتشفوا تفصيلا تاريخيا مهما أغفلت التوراة الإشارة إليه. فطبقة الرماد السميكة والحجارة المحروقة وأصنام الآلهة المتكسرة تدل كلها دلالة قاطعة أن المدينة راحت ضحية عدوان مفاجئ وحريق هائل، وهذا يعني أن داوود أباد بيت شان وثأر من أهلها الذين هزؤوا بجثة شاول وازدروها}.

وحول تناقض بعض روايات التوراة فيما بينها، يقول زينون كاسيدوفسكي {[لقد حاول علماء التوراة غير مرة أن يشرحوا هذا التناقض أو يخلقوا فيه شيئا من التوافق، ففيما يخص حادثة جليات ظهر اكتشاف وضع يد العلماء فجأة على أثر. فقد تبين أننا لا نعرف وريث شاول على العرش. لأن الاسم «داوود» ليس اسما من أسماء الأفراد بل هو لقب من الألقاب التي تعني قائدا أو مولى. وهذا ما تؤكده نصوص ماري التي ورد اسم «داوودوم» بالمعنى المذكور. ومن هنا توصل العلماء إلى نتيجة مؤداها أن داوود وإلخانان هما شخص واحد.

إذا افترضنا أن الذي قتل جليات هو الراعي إلخانان الذي من بيت لحم وأن الإسرائيليين أسموه داوود تعبيرا عن شكرهم له، لزال التناقض فورا}].

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، تفسير النقش الذي اكتشف في بتري (تل اليهودية) في منطقة الدلتا، والذي يبين استقبال المصريين لـ (أمراء البدو)، حيث اعتبر - وبطريقة مطلقة ونهائية - أنه يمثل استقبال الفراعنة (الهكسوس) للآباء الأوائل (يعقوب والأسباط الاثني عشر).

أما ما جاء في إحدى رسائل تل العمارنة، والتي كان قد بعث بها ملك أورشليم عبدي خيبا والتي يقول فيها {ما الذي اقترفته بحق مولاي الملك؟ إنهم يلومونني عند مولاي قائلين بأن عبدي هيبة قد تألب على سيده الملك. ولكني أقول بأن أبي لم يبوئني هذا المنصب ولا أمي، بل أسلحة مولاي القوي هي التي فعلت. فلماذا أتمرد على مولاي الملك؟.... ليعلم مولاي بأننا نفتقد إلى قوات حماية ترعى أراضيه، فهلا وجه المليك عناية نحو أراضيه التي تمردت هنا بتحريض من إيلي ميلكو}. وفي تفسير ذلك، جاء في دائرة المعارف الكتابية {فيما يتعلق بملكي صادق الذي كان «بلا أب وبلا أم» (عب ٧: ٣)، فإن خطابات تل العمارنة - مع أنها لم تقدم كل المعلومات اللازمة - قد بددت الكثير من تخيلات قدامى المفسرين، وأشارت إلى موقع ملكي صادق من سلسلة ملوك في أورشليم ذوي لقب فريد، ينكرون على أنفسهم فيه أي حقوق وراثية في العرش: «إنه لم يكن أبي ولا أمي هما اللذان وضعاني في هذا المركز، لكنها الذراع المقتدرة للملك نفسه الذي جعلني سيداً على أراضي وممتلكات أبي». هذا اللقب الذي دار حول ترجمته الصحيحة الكثير من الجدل لم يذكر في هذه الخطابات مرة واحدة فقط، بل يبدو أن تكراره كان ضرورياً عند كل ذكر رسمي لسيادة الملك}، وبذلك اعتبر عبدي خيبا الذي ورد اسمه في حوليات تل العمارنة، هو ملكي صادق الذي ورد ذكره في التوراة، وأنه كان بلا أب، ولا أم حسب ما جاء في التوراة، وحسب رأيهم ما يؤكد ذلك هي الجملة التي تقول {ولكني أقول بأن أبي لم يبوئني هذا المنصب ولا أمي}.

وما يجب التنويه إليه هو أن ملكي صادق هو لقب كهنوتي حسب ما أتى في سفر المزامير «قال الرب لربي اجلس على يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك. يرسل الرب قضيب عزك من صهيون. تسلط في وسط أعدائك. شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة من رحم الفجر لك طل حداثتك

أقسم الرب ولن يندم. أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. الرب عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكه. يدين بين الأمم. ملأ جثثا أرضا واسعة سحق رؤوسها. من النهر يشرب في الطريق لذلك يرفع الرأس» مزمور ١١٠.

كما حاول التوراتيون، بسوء نية، إيجاد تبرير للرواية التوراتية التي تزامن، وتماكن بين مملكة سبأ اليمنية، وبين مملكة سليمان في بلاد كنعان، والتي من المفترض أنها تشكلت في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، فذهبوا إلى أن القبائل السبئية كانت تحط برحالها إلى الشرق من خليج العقبة، ومن وادي عربة (بلاد العربيي كما أتت تسميتها في الحوليات الآشورية)، في مرحلة تتزامن مع مرحلة مملكة سليمان، وقد حكم على تلك المملكة عدة ملكات، كانت إحداهن الملكة بلقيس، وأيضا الملكة زبيبة التي ذكرت في بعض النقوش، والتي يعتقد أنها الملكة الزباء التي تحدث عنها الإخباريون العرب، والملكة شمسي التي حكمت نحو سنة ٧٣٨ قبل الميلاد، وملكة تدعى تبوءة أو تبوعة والتي عاصرت الملك الآشوري سنحاريب، ويرى البعض أن العرب الشماليين حافظوا على المجتمع الأمومي حيث بقيت القبيلة تترأسها المرأة - الأم لمرحلة متأخرة.

وقد انتقلت تلك، أو بعض من، القبائل إلى اليمن وشكلت في مرحلة لاحقة مملكة سبأ الشهيرة، وهو الأمر الذي يفسر، حسب ما يذهب إليه أصحاب هذا الرأي، كيف أن حضارة عرب الجنوب التي ظهرت فيما بين ٩٠٠ - ٨٠٠ق.م، كانت متطورة في زمانها، ومكانها، أي بمعنى أن تلك الحضارة قد قدمت من الخارج بشكل ناضج، ولم تكن نتيجة لتطور محلي، ويذهب فرتز هومل أن تلك الحضارة قد جاءت محمولة مع قبائل عربية كانت تعيش في منطقة مديان في شمال الجزيرة العربية، وهو الذي اكتشف في مدين آثاراً لحضارة العرب الجنوبيين، وقد ذكر هومل أنه {ورد مرة لفظ سبأ في نقش معيني، وكان هذا النص يشير إلى أن هذا اللفظ يدل على قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجاري الممتد بين بلاد العرب الجنوبية وبين معان الواقعة في شمال بلاد العرب، وكانت تسطو أيضا على القوافل المعينية القادمة إلى مصر. ثم نقرأ القصة التي تحدثنا عن زيارة ملكة سبأ لسليمان، فهذه القصة لا يمكن فهمها جيدا إلا إذا قدرنا أن السبأيين كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب، وليس الإنسان في حاجة هنا إلى تأويل، ونستطيع أن نعتقد أن هناك نواة تاريخية لهذه القصة. كذلك مما يؤيد وجود وطن للسبأيين أصلي في شمال بلاد العرب، ورود لفظ سبأ مصحوبا بلفظ دادان في العهد القديم}، وممن يؤيدون ذلك رينيه ديسو أيضا، وسترابو، أما ألبرايت فيذهب إلى أن السبأيين هاجروا من مديان إلى الجنوب بُعيد القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أما من تبنى - أو استشهد - بهذه المقولة هو د. سيد قمني، والذي يرى أن السبأيين كانوا أصلا في العربية الجنوبية، وقد رحلوا إلى العربية الشمالية، وأسسوا هناك عدة ممالك، ولكن ولسبب ما، عادوا إلى العربية الجنوبية ثانية، ومعهم حضارتهم المتقدمة في القرن الثامن قبل الميلاد، وقد ذهب سيد القمني بعيدا في اعتماده على التوراة كنص تاريخي {ثم تستوقفنا لفظة (بوريكة أو بوليكة) لنجد لها صدى في لسان العرب إذ يقول تحت مادة أيك:

في التهذيب: في قوله تعالى: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، وقرئ أصحاب ليكة، وجاء في التفسير أن اسم مدينتهم كان ليكة.

ولو صرفنا الاسم (بو- ليكة) بإضافة US، فتصبح (بوليكيس) أو (بلقيس)، ذلك الاسم الذي تواتر في المأثور الإخباري العربي بحسبانه اسم ملكة سبأ زمن الملك سليمان}، ومن ثم يقترح سيد القمني أن الزباء، وهي الملكة العربية التي توارد ذكرها في التراث العربي، هي ملكة سبأ التي زارت الملك سليمان، والتي لم تأت التوراة على ذكر اسمها، وأن (الملكة الزباء) قد تحولت بالترجمة إلى (ملكة سبأ).

وبشكل مباشر، وغير مباشر جهد د. سيد القمني بالتأكيد على أن بلقيس هي ملكة سبأية عاشت في منطقة أدوم، ثم انتقلت تلك المملكة نحو جنوب الجزيرة العربية بعد طرد الهكسوس على اعتبار أن المديانيين كانوا من الأحلاف الهكسوس، وقد تم طردهم من هناك على يد شاول، وقد استشهد على مقولته بما جاء في سفر صموئيل «وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر» صموئيل أول ١، وبذلك فقد ذهب سيد القمني إلى أن العماليق الذين قام شاؤل بطردهم، هم الذين انتقلوا إلى جنوب العربية، وشكلوا مملكة سبأ.

والجدير ذكره أن من بين الملوك الذين حكموا سبأ ما بين ٨١٠ - ٥١٠ قبل الميلاد: أنمارم يهو أمين - نشمي كرب يهو أمين - كرب إيل وتر يهونعم، فإذا أخذنا بما ذهب إليه القمني، فكيف يمكن أن نفسر كيف يَعبد من هُجّروا إله من هجَّرهم؟!

كما أن سيد القمني حاول أن يفسر - بطريقة لا تخلو من غرائبية - ذكر (المقدس) التوراتي للفلسطينيين في عهد الأباء الأوائل في بلاد كنعان، فذهب إلى أن الفراعنة والهكسوس من بعدهم الذين كانوا قد اجتاحوا الجزر والشواطئ المتوسطية قاموا بنقل (كما فعل بعدهم الآشوريون والبابليون) الطبقة المفيدة (الحدادين منهم على سبيل المثال) من الشعب المقهور، ومنهم بعض جماعات البيلست التي وطنتهم على ساحل بلاد كنعان، ولكن سيد قمني الذي قاد حجته دون أي دليل، وبصيغة لم يدس إلا مرة واحدة بين كلماتها ما يشير إلى أن ما يذهب إليه هو اعتقاد، وكانت حجته على اعتقاده الذي لا يرقى إليها الشك هو (هكذا قال المقدس التوراتي)، ويعتقد د. سيد قمني أن إبراهيم قد دخل مصر في زمن الهكسوس، وهذا ما يفسر أن الملك المصري منح إبراهيم جارية مصرية، ولو كان في زمن الفراعنة المصريين لما أعطى الفرعون إبراهيم جارية مصرية، وتابع حديثه قائلا {وهكذا فإن الهجمة التي حدثت في زمن مرنبتاح، وتلاها هجوم أعظم زمن رمسيس الثالث لم تكن هجمة الفلسطينيين من كريت التي احتلوا بموجبها ساحل فلسطين، إنما مجموعة خرجت من الجزر اليونانية حملت أسماء شعوب عديدة كالشاكوشا والثكر والدانونا والواشاشا والبلست وهم الذين عرفهم التاريخ باسم الشعوب الآخية، وهي الهجمة الكبرى التي أسقطت الحضارة الحيثية وأزالتها من التاريخ. وكان الخلط يتم دوما بين حركة الآخيين الكبرى وبين وجود البلست على الساحل الفلسطيني بدمج مبتسر ومتكلف لإيجاد تفسير لظهور الكريتيين البيلست على الساحل فلسطين، في زمن كانت فيه مصر قد أصبحت إمبراطورية قوية لن تسمح بهذا الاستقرار لمهزومين - كما يقولون - في أرض تابعة لها - وكان هذا الاستيطان المبكر للفلسطينيين أمرا غامضا لم يأت بشأنه مدون واضح يحدد موعد بدئه، لأنه ببساطة حدث زمن الهكسوس الذي لم يترك لنا شيئا مدونا يعول عليه. وهو الزمن الذي أسدل عليه المصريون ستارا من النسيان فلم يدونوا عنه وقرروا نسيانه ولم يعودوا يذكرونه كأنه لم يكن}.

وهذه السذاجة والعماء من قبل الباحثين التوراتيين، ومن يذهب مذهبهم، لا تستغرب على من يُعَدّ أن المقولة التوراتية مقولة مطلقة، وأن أي اكتشاف أركيولوجي يجب البحث عن موقعه في التوراة، كما يجب تفسيره من خلال التوراة أيضا.

إن البحث الأركيولوجي في فلسطين جاء من العالم الغربي المسيحي مرتبطا بعدة حيثيات، على رأسها الوضع السياسي الراهن المؤسس أصلا على المعطيات التأريخية التوراتية، ويليها في الأهمية الحالة النفسية الخاضعة للحالة العاطفية الدينية للغرب المسيحي (البروتستانتي بشكل خاص)، ومن بعدها الضغط السياسي الصهيوني، وهذا ما جعل البحث التاريخي ذا نمط عصابي وغير سوي من ناحيته النفسية، فبدل البحث في الجغرافيا عن التاريخ، أو البحث في المكان عن الزمان، تم البحث عن التاريخ في الجغرافيا، أو البحث عن الزمان في المكان، وهذا أيضا ما جعل البحث الأركيولوجي مركّزا في متنه على التاريخ اليهودي كما جاء في التوراة، مع تهميش تاريخ الأمم المتنوعة التي مرت على المنطقة، وبذلك فإن هذا التاريخ تنقصه مقومات كونه علميا.

لقد حاول الغرب من وجهة نظر ذاتية، ومن نزعة قومية، أن يؤرخ للشرق الأدنى، مستلبا - بقصد، ومن غير قصد - الحقيقة التاريخية، محاولا الربط بين (المعجزة الأغريقية)، (والمعجزة التوراتية)، وكان أول من اعتزم القيام بالبحث الأركيولوجي في الشرق الأدنى القديم هو الباحث الفرنسي إيرنست رينان سنة ١٨٦٠م، وقد استعر مجيء القادمين إلى المنطقة للبحث عن التوراة تحت الأرض، وأصبح البحث الأركيولوجي في الشرق الأدنى هوسيا، خاصة بعد أن تم اكتشاف طروادة هوميروس سنة ١٨٦٨م على يد العالم هنريش شلايمن، وتم إنشاء صندوق الاكتشاف الفلسطيني سنة ١٨٦٥م برعاية ملكة إنجلترا فكتوريا، وكان تشارلز ويلسون قد شد رحاله إلى القدس وأجرى مسحا شاملا للمدينة مع رسم خريطة لها، وكان أول تصريح هز الأوساط أدلى به العالم الأمريكي وليم ألبرايت بمقولة مفادها أن إسرائيل هيمنت على أرض فلسطين في نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد.

وكان البحث الأركيولوجي في بدايته ذا نمط عصابي يتعلق بذاتية الباحثين المسيحيين وانتماءاتهم الدينية الطائفية، وكان من أكثر الأمثلة تدليلا على ذاتية البحث الإرباكات التي حصلت - وما زالت - مع اللجنة الدولية التي انكبت على ترجمة وقراءة مخطوطات البحر الميت، التي يعتقد أنها تعود إلى الطائفة الأسنية، والتي دوّنت في محيط الميلاد، وعلى ما يبدو فإن هذه المخطوطات لديها الكثير من الحقائق التي تخالف المقولات الكنسية، وكذلك الأمر بالنسبة للبرديات التي فقدت - وما زالت سرا إلى يومنا هذا - والتي تم العثور عليها في مقبرة توت عنخ آمون كما أتينا على ذكرها سابقا، وكان هوارد كارتر مكتشف المقبرة قد هدد بنشر هذه البرديات، والتي من شأنها - حسب ما جاء في رسالة بعث بها هوارد كارتر إلى أصدقائه - أن تغيّر الكثير من اعتقادات العالم المسيحي واليهودي، ويعتقد كل من أندرو كولينز وكريس هيرالد أن هذه البرديات كانت تتحدث عن جماعات الخروج بطريقة مخالفة تماما لما أتى في التوراة، وهنا لنا أن نربط بين مخطوطات البحر الميت، وبرديات مقبرة توت عنخ آمون، كما يمكن أن نربطها أيضا مع الاعتقادات الجديد التي تربط بين السيد المسيح، وتوت عنخ آمون.

إن الأركيولوجيين - المسيحيين الذين تربوا على قدسية المقولات التوراتية - كانوا يصطدمون في البداية بالحقائق التي تأتي على خلاف ما يتمنونه، وكانوا يأملون أن يكتشفوا من الأدلة التاريخية ما من شأنه أن يعيد للمقولات الدينية قدسيتها.

وكان الباحثون في بداية أي اكتشاف يلوذون بالصمت، فقليل منهم كان بإمكانه امتلاك القوة والجرأة ليصرّح بنتائج الأبحاث التي تتعارض مع المقولات الدينية، أو لا تتفق، على الأقل، مع المقولات التوراتية، ولكن الباحثين في النهاية - وبعد استعادة التوازن النفسي والذاتي لبحثهم الموضوعي - كانوا يتحلقون حول الموضوعية بعد تخليهم عن ذاتيتهم الدينية.

وفي مرحلة لاحقة، وبشكل متدرج بدأ البحث يأخذ صفته الموضوعية، وكان الباحث الأركيولوجي ليمك أول من أوصل مقولته التي مفادها أن نتائج البحث الأركيولوجي لم تأت بما يؤكد المقولة التوراتية، ومن ثم بدأ الباحثون يعلنون بجرأة عن عيوب خطابهم الذاتي.

وبشكل عام كان الخطاب الغربي في البداية ذو طبيعة ذاتية راديكالية، ومن ثم، وبعد أن أضاءت البحوث الأركيولوجية عتمة التاريخ، تحول الخطاب شيئا فشيئا نحو الموضوعية، ولم يبق سوى القليل من المنابر والزوايا القليلة الضيقة للخطاب الذاتي الراديكالي.

وكانت أكثر الخطابات الأركيولوجية في البداية متوافقة مع الواقع المعاصر ومعطياته الأيديولوجية، وكتابات آلت تحديدا جاءت متوافقة مع الفكر الصهيوني، وشكلت له قاعدة ومرجعية تاريخية، وجاءت لتوحي للغرب أن الفلسطينيين هم نسخة أخرى (وليس ورثة) عن الكنعانيين الذين لم يستطيعوا تشكيل كيان سياسي خاص بهم في التاريخ القديم، وبذلك فإن الفلسطينيين العرب أيضا غير قادرين على تشكيل كيان يستطيع أن يضطلع بمسؤولياته، وتبعيته لبريطانيا بعد أن تنهي انتدابها له، ويقول ألبريت آلت {إن إسرائيل تمكّنت من هزيمة الحكم الفلسطيني المستبد، ومن إنشاء دولة قومية هي أول دول قومية موحدة عرفتها الأرض}، كما كان لألبرايت تأثير واسع على الفكر الغربي، ولا سيما على القطاع الأكاديمي، وهو الذي قال {فمن حسن طالع التوحيد ومستقبله أن الغزاة الإسرائيليين كانوا غلاظا أجلافا وأصحاب إرادة لا ترحم ليحلوا محل الكنعانيين الوثنيين، عبدة الخصوبة، ليعيدوا إلى الحياة صفاءها عبر ممارستهم البسيطة للرعي، وبواسطة التزامهم بتعاليم موسى.. ليمهدوا بذلك الطريق للرومان العظام كي يسحقوا هؤلاء الكنعانيين الأفارقة أو القرطاجيين، كما يسمون أنفسهم، فالرومان بقوانينهم الصارمة ووثنيتهم المهذبة يذكروننا من عدة أوجه بإسرائيل الأولى}، وبذلك فقد قام بإسقاط الماضي على الحاضر من خلال إحلال واستبدال الفلسطينيين العرب بالكنعانيين، والإنكليز بالرومان، أما الإسرائيليون فما هم سوى اليهود.

ويقول ألبرايت أيضا {الاتصال المباشر بين الماضي والحاضر هو الذي يسوغ حق إسرائيل في هذه الأرض}.

وهكذا قام الغرب الأوربي الثقافي الاستشراقي بدفع الدراسات التاريخية، والأركيولوجية في ساحة المعركة على الحاضر، بحيث أصبح ذهاب اليهود إلى فلسطين، هو فعل عودة ورجوع أو إياب، وغزو واحتلال فلسطين هو تحرير واستقلال لإسرائيل، وقد كشف هذا التوجه، وبشكل صارخ، المفكر اليهودي الأمريكي يعقوب بتوتشوفسكي حين

قال {إن البحث والتنقيب في خرائب الماضي، وفي أساسات المباني التي شيدها الأجداد يهدف إلى العثور على رابطة ثقافية مشتركة بين الأجداد القدماء وبين المتحدرين من سلالاتهم في هذا العصر، وفي الوقت ذاته يجري استحلاب الأرض واستنزاف ما فيها من شواهد تاريخية بهدف حقن اليهود والآخرين بأن الأمة التي تقيم في صهيون الآن تتألف من ذلك الشعب نفسه الذي سكن هذه البقعة في الزمن التوراتي، وهكذا يتم اجتياز آلاف السنين الممتدة بين ذلك الماضي البعيد والعصر الحاضر، بمرح وجهل يبعث منتهى السعادة}

وعلى الرغم من تخلص الكثير من علماء الآثار من هيمنة النص التوراتي على قراءة التاريخ، إلا أنهم لم يستطيعوا التحرر تماما من هيمنة الضغط الصهيوني بقبول التوراة على أنها وثيقة تاريخية يجب الأخذ بأقوالها، وما زال الباحثون التوراتيون يتحدثون عن أرض فلسطين الجغرافية على أنها أرض إسرائيل (إيرتس إسرائيل)، ولكنهم لا يتحدثون مطلقا ولا يوردون (الكنعانيين والفلستيين) على أنهم شعوب تنتمي وتنتسب لمنطقة جغرافية محددة، بل يذكرون الشعوب التي مرت بفلسطين على أنها شعوب عابرة لم تستطع أن تؤسس كياناً سياسياً مستقلاً على الإطلاق، وأنها شعوب تنتمي إلى فترة ما قبل التاريخ الفلسطيني على اعتبار أن تاريخ فلسطين لا وجود له قبل دخول القبائل العبرية إليه،

وفي هذا السياق يقول المؤرخ التوراتي نوت مقصيا أي معنى تاريخي، أو اجتماعي، وأي هوية لسكان الأرض الأصليين في بلاد كنعان قبل دخول (بني إسرائيل) إليها {إن الأرض جرداء وخالية من العنصر البشري، أما السكان الموجودون فهم مجهولون لا اسم لهم}.

أما الحاخام زهابي فيقول {إن السماح لكنعان بالبقاء كان على أساس المنّة، ولكي يصون الكنعانيون هذه الأرض إلى حين مجيء بني إسرائيل لاستلامها}.

وقد جهد الباحثون التوراتيون في التأكيد على أن أول كيان سياسي مستقل (وطني) تشكّل على أرض فلسطين هو الكيان الإسرائيلي ضمن المفهوم القومي، وبالوقت نفسه قامت الصهيونية بتفتيت المفهوم القومي العربي، ووجهت خطابها الإعلامي، بل وتعاملت مع الشعب العربي على أساس عدة شعوب طائفية (سنية، شيعية، علوية، درزية، كاثوليكية، أرثوذكسية، موارنة.. وغيرها)، وكذلك الأمر بالنسبة للجغرافيا، حيث فتت جغرافيا الوطن العربي، وبالتالي البعد القومي إلى مجموعات إقليمية (الشرق الأوسط وشمال أفريقية) وأجبرت الجميع على التعامل معها - ومنهم العرب أنفسهم - والتي تحمل ثلاث قوميات على الأقل هي العربية والفارسية والتركية (والكردية)، ويحمل أكثر من جغرافيا واحدة، وإقليم طبيعي واحد، كما قامت بتفتيت الأراضي العربية التي احتلتها سنة ١٩٦٧م، إلى وحدات إدارية متفرقة.

لقد قام الخطاب التوراتي على تغيب الوجود التاريخي لشعوب المنطقة الأصليين، وكانوا، عندما لا يجدون بدا من ذكر أن التأريخ الإسرائيلي القديم قام على احتلال بلاد كنعان (فلسطين)، يجيبون أنه حتى يبدأ التاريخ (التاريخ المحوري للبشرية) لا بد من وجود جغرافيا محددة يتمثل عليها تاريخ الشعب (المختار)، وهذا يبيح بعض أشكال الظلم، والقتل وربما الإبادة من أجل أن يحافظ الشعب التاريخي على هويته العرقية، يقول دوثان {إن الإسرائيليين المجموعة الأثنية الوحيدة التي نجحت في تكوين دولة على هذه الأرض، ومن دون أن تكون تابعة لإمبراطورية عظمى، أو منتمية إلى مزيج من الدول - المدن، ذلك

النمط الذي ساد الفترة الكنعانية، فإسرائيل القديمة تمثل ذروة التطور السياسي والحضاري الذي حل محل البدائية}.

ولمزيد من إمحاء التاريخ الكنعاني، وانتزاع الفكر الحضاري منه يقول رايت: {ونحن نعرف الآن.. أن الحضارة والديانة الكنعانية كانت من أضعف الديانات والحضارات والأكثر اهتراء، والثقافة الأكثر لا أخلاقية في العالم المتمدن يومها. ولذا فإنه يقال إن إسرائيل هي وكيلة الرب في التدمير ضد الحضارة الخاطئة، لأن الحضارات الآثمة ذات الشرور وفق نظام الرب الأخلاقي يجب أن تدمر، ومن جهة أخرى إن للرب غاية من اختيار إسرائيل وإعطائها الأرض، غاية جاءت في وعوده لآباء إسرائيل في سفر التكوين}.

أما ألبرايت فيقول: {ولقد كان من حسن الحظ لمستقبل التوحيد أن إسرائيليي الغزو قد كانوا همجا، مزودين بطاقة بدائية وإرادة في البقاء لا تلين، حيث إن إفناء الكنعانيين قد منع الخلط الكامل بين القوميين القريبين، الأمر الذي كان سيحط من المستوى اليهوي إلى درجة يصبح معها إصلاح الأمر مستحيلا..}.

ويتابع: {لا يتحقق الارتقاء الروحي الحقيقي إلا من خلال الفاجعة والمعاناة للوصول إلى مراتب جديدة بعد التطهير الذي يرافق الاضطرابات الكبرى. وكل فترة من هذا النوع من الغم العقلي والجسدي، وفيما القديم يزول والجديد لم يولد بعد، تنجم نماذج اجتماعية مختلفة ورؤى روحية أعمق}، أما في دائرة المعارف الكتابية فقد جاء فيها {يمكن تبرير ما حدث في المعارك المدونة في السفر - سفر يشوع - من إبادة وتدمير، بأنها كانت حربا مقدسة. فقد كان بنو إسرائيل أداة في يد الله لعقاب الشعوب الكنعانية، لأنهم كانوا قد أوغلوا في الشر، ولكي لا يكونوا شركا لبني إسرائيل علاوة على أن المبادرة بالقتال كانت تأتي دائما من جانب الشعوب الكنعانية، وكان على بني إسرائيل أن يوجهوا أولا دعوة للمسالمة، ولكنها كانت تواجه بالرفض، ويبادرهم الكنعانيون بالحرب، وكان الذنب هو ذنب ملوكهم ورؤسائهم، ولكن كل ما حدث كان دليلا على هيمنة الله على أحداث التاريخ}، وهذا التبرير العنصري للجرائم العبرية ينطبق على جرائم الإبادة التي يقوم بها الإسرائيليون الصهيونيون (سلطة وشعبا) في الوقت الحاضر.

إن المكتشفات الآثارية تشير إلى أنه تم تدمير مجهول الهوية في القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد للمدن والقرى الكنعانية، ويعتقد علماء الآثار التوراتيون أنه تم على يد الغزاة العبرانيين، ولكنهم يسوغون ذلك التدمير على اعتبار أن القبائل العبرية قامت به بناء على أمر إلهي، يقول برايت: {إن الذبح الجماعي لم يكن يطبق إلا في حالات محددة، فالسكان الكنعانيون كانوا قد أبيدوا نهائيا} على الرغم من أن النظريات الحديثة بيّنت أن هذا التدمير قامت به أقدام الجفاف الميسيني الثقيلة، والتي كانت قد قامت بتهديم كامل للكثير من القرى لا سيما الفقيرة زراعيا، وتركت بعضها آيلاً إلى السقوط، والقليل منها استطاعت أن تقاوم هذا الجفاف لا سيما التي تمتلك بيئة زراعية جيدة، وقد شاركت ولحقت بالجفاف الميسني الغزوات الفرعونية، واجتياحات شعوب البحر، والقبائل العبرية لتهدم القرى الآيلة إلى السقوط فقط، ولكن محرري التوراة أرادوا أن يعيدوا إلى القبائل العبرية هذا الفعل التدميري لتعزيز مقولتهم بأن شعب الله المختار كان يمتلك إرادة مستمدة ومدعومة من قبل رب الجنود (يهوه)، وقد أتى من بعدهم، وعلى نفس خطاهم علماء الآثار

التوراتيون الراديكاليون، ليحرروا الخطاب الأركيولوجي كما كان رجال الدين اليهودي قد قاموا بتحرير التوراة.

أما رايت، وهو كاتب يمثل الرأي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية التي قَبِل العرب بها قاضيا أو وسيطا بينهم وبين دولة إسرائيل الصهيونية، فيقول: {إلا أن شعوبا أخرى كانت لها أحداث في خلفيتها ليست بعيدة عن ذلك، فنحن في الولايات المتحدة الأمريكية لدينا آباؤنا المؤسسون و (خروجنا) من الاضطهاد الأوربي، وعهدنا المتمثل في الدستور ومرسوم الحقوق، وفتحنا لأمريكا، وسلسلة من الرجال العظماء الذين كانوا آباء بلادنا ابتداء من جورج واشنطن طبعا، وبمعنى آخر إن الحدث الكتابي بوصفه حدثا تاريخيا ليس مثيرا كثيرا للعاطفة من حيث فرادته}.

ولكن رايت الذي عدد التشابه بين استيطان الرجل الأبيض، واستيطان القبائل العبرية، لم يذكر أبدا التشابه الحقيقي الآخر للشعبين الذين تم الاعتداء التاريخي الحضاري عليهما، وهم الهنود الحمر، والكنعانيون أصحاب الأرض الأصليون والمجازر التي نفذت بهم، والتهميش الذي قام به كلا الاستيطانيين لتاريخ كلا الشعبين، وغاية هذا الخطاب الأمريكي أن يستحوذ على تشكيل حالة عاطفية، وتعاطفية من قِبل الرجل الأبيض الأمريكي تجاه الاستيطان الإسرائيلي في التاريخ القديم (وفي التاريخ الحديث أيضا) على اعتبار أن التوراة وثيقة تاريخية غير مشكوك فيها، وما القصد من استبعاد ذكر التشابه في هذه النقطة من قبل رايت إلا تهميش الصوت الإنساني للمعتدى عليهم، وهذا التهميش في الخطاب الإعلامي مترافق ومتزامن مع التهميش البحثي الآثاري أيضا.

فقد كان تصور الرجل الأبيض يذهب إلى أن الهندي الجيد هو الهندي الميت، فالهنود (المنحطين أخلاقيا، وحضاريا، ودينيا أي المدنسين) يجب أن تتم إبادتهم، لأنهم لا يمكن أن ينسجموا مع الرجل الأبيض (الرجل الأسمى، أو الأمة الأمريكية المختارة تحديدا) على أرض أمريكا التي تفيض بذهبها (أورشليم الجديدة)، وإبادة الهندي الأحمر هو عمل مقدس بصفته شعبا لا يؤمن بما يؤمن به الرجل الأبيض، وهذا كفيل بالتربيت على الضمير الفردي كي ينام أثناء أعمال الإبادة المقدسة، أو أي عمل من شأنه استبعاد هذا الرجل الأحمر والذي يمكن أن يكون من خلال الفصل، أو الإبعاد، أو السيطرة، وما سواه من أعمال الإقصاء.

وقد تواطأ البحث العلمي الأوربي بدافع لاهوتي من جهة، وسياسي من جهة أخرى في إقصاء التاريخ الكنعاني، والتركيز البحثي عن إسرائيل التوراتية، وعلى الرغم من اليأس الذي تسرب إلى نفوس الباحثين فإن الضغط والخناق الإسرائيلي الصهيوني بقي مسيطرا على قيادة وتوجيه دفة البحث العلمي، يقول مانهايم: {يمكن للجماعات المتحكمة أن تصير في تفكيرها شديدة التركز على مصلحتها ببساطة، إلى الحد الذي لا تعود فيه قادرة على رؤية بعض الحقائق التي تدمر إحساسها بالسيطرة}.

وعلى مثل هذه المقولات التي استخدمت في تهميش التاريخ الكنعاني القديم، عاد واستخدمها اليهود ثانية في العصر الحديث تحت مقولة: (فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)، وهذا ما أرادوا أن يثبتوه من خلال البحث الأركيولوجي لمرحلة القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فالمؤرخ التوراتي دوثان يرى أنه من المتوجب عدم استخدام كلمة فلسطين، لأن هذا الاسم {لم يكن الاسم الرسمي للبلد إلا لمدة لم تتجاوز الثلاثين عاما أثناء

الانتداب البريطاني، وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان هذا الاسم مقصورا على الساحل الجنوبي فقط}.

ولكن النتائج الأثرية كانت قد خيبت آمال المؤرخين التوراتيين بشكل عام، بل على العكس فقد بدأت تشككهم بالمقولات التوراتية، والتأريخ التوراتي الذهني، يقول وليم فوكسيل ألبرايت: {ومع أن عشرين عاما قد مرت منذ أن وصلت دراسة الآثار الفلسطينية إلى مرحلة مستقرة بما فيه الكفاية لتبرير استخدام معطياتها من قبل المؤرخين المتزنين، إلا أنه ما يزال من الصعب على غير المتخصص أن يرى طريقه وسط التواريخ واستنتاجات علماء الآثار المتناقضة}.

ولكنه يعود فينكص عن اندفاعه وحماسه: {ووسط حماس المرء للبحث الآثاري يواجه إهمال السبب الدائم والداعي لأي اهتمام خاص بفلسطين، ويكاد يكون العهد القديم العبري كله نتاج التربة الفلسطينية، والكتاب الإسرائيليين}.

والتوراتيون يقرّون بحدوث التطهير العرقي الذي قامت به العصابات العبرية ليؤكدوا أن السكان المحليين (الكنعانيين - الفلستيين) قد أبيدوا عن بكرة أبيهم، أو أنهم تلاشوا في المجتمع والدين العبري، وبذلك لم يتركوا لهم وريثا يطالب بحقهم التاريخي، أو بدمهم، وبذلك يكون اليهود المعاصرين هم الورثة الوحيدون الحقيقيون والتاريخيون لفلسطين، وأن الفلسطينيين العرب الحاليين هم دخلاء يعودون إلى عروق ومجتمعات متعددة دخلت إلى فلسطين في مراحل متعددة لاحقة على الوجود العبري، وعلى رأسها العرق العربي الذي دخل مع الإسلام في القرن السادس بعد الميلاد، وبذلك يبقى للعبريين الحق التاريخي في فلسطين حتى في حالة استثناء أو استبعاد حجة الهبة الربانية والحق الميثولوجي الديني لأرض فلسطين كما وعدهم ربهم بذلك.

وقد حاول البعض الدفاع عن هذه النقطة، أو التخفيف منها بادعائهم أن المجازر التي وقعت في بلاد كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد لم تكن جميعها على أيدي العصابات العبرية، بل كان الكثير منها قد حصل بين السكان المحليين، ويعزون ذلك إلى حالة الفوضى والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي عمّت المنطقة بسبب الغزو العبري، ولكن دون أن يقدموا أي برهان على هذا الادعاء الذي يسوقونه حين يريدون التخفيف من تهمة الهمجية التي يُنعت بها الغزو العبري لبلاد كنعان، أما حين يريدون أن يؤكدوا أن الكنعانيين لم يبق لهم وجود فإنهم يؤكدون على أن الغزو العبري قام بإبادة أصحاب الأرض الأصليين نهائيا تحت تبرير الإبادة المقدسة بأمر إلهي، وبغض النظر فكلا وجهتي النظر ينتهيان إلى أن القبائل العبرية استطاعت أن تمتلك الأرض على الصعيدين السياسي - العسكري، والإداري التملكي، وهذا تماما ما حصل، ويحصل الآن من امتلاك للأراضي الفلسطينية من قبل الاحتلال الإسرائيلي، حيث استولت الجماعات الصهيونية على الأراضي الفلسطينية، من خلال التطهير العرقي لبعض القرى، والمجازر المشهورة التي أفرغت القرى من سكانها، وأذاعت الرعب في القرى الأخرى الآمنة، الأمر الذي جعل المواطنين الفلسطينيين يهربون فزعين من قراهم، وبذلك إفراغها تماما من سكانها الفلسطينيين، ومن ثم تم الاستيلاء عليها من قبل المستوطنين، وقد أكدت الحفريات التاريخية أيضا على حصول مثل هذه المجازر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بُعيد تدمير المدنيات

الكنعانية، وأنه قد تم إنشاء تجمعات قروية استيطانية أجنبية فقيرة وبسيطة، كما أوضحت الحفريات الأثرية ويعتقد أنها كانت للغزاة العبريين.

أما بالنسبة لمملكة داود الموحدة التوراتية، فقد دأبت الدراسات التوراتية التاريخية في التركيز على ضعف الهيمنة والتواجد الإمبراطوري العسكري في منطقة الشرق الأدنى القديم في سياق انتقال الألفية الثانية قبل الميلاد، نحو الألفية الأولى قبل الميلاد، كي تعطي منطقاً تبريرياً، وتفسيرياً لقيام الإمبراطورية الداودية المزعومة، لا سيما بعد أن فشلت محاولات معاول الباحثين الأركيولوجيين في إيجاد أي دلالة أركيولوجية تؤكد صحة المقولة التوراتية التي يستمد الخطاب الغربي منها مفرادته، وقد كان لاكتشاف (نقش دان)، وهو نقش آرامي على بلاطة أثرية جاء فيه ذكر (بيت داود)، أثر صارخ لدى الباحثين أو اللاهثين وراء إي ذكر مهما كان بسيطا (خارج التوراة) على ما تدّعيه التوراة من ذكر للإمبراطورية الداودية العظمى، وقد اعتبر هذا الذكر بمثابة دليل ثابت ودامغ لصحة الرواية التوراتية على الوجود التاريخي للمملكة الداودية العظمى، وهذا يدلنا على مدى الخواء الأثري الذي يتخبط فيه التاريخيون التوراتيون في بحثهم عن أي دليل مهما صغر شأنه، وعلى الرغم من أن هذا النقش ربما يعني أو يشير إلى موقع جغرافي، أو إلى اسم أي عائلة كنعانية كانت تعيش على جبال فلسطين، إضافة إلى نقش الفرعون مرنفتاح الذي ورد فيه ذكر كلمة إسرائيل، التي أتت في معرض حديث مرنفتاح عن الأمم والدول التي انتصر عليها عسكريا وأخضعها لسلطته، دون تحديد واضح للمعنى إن كان يعني شعبا أو موقعا جغرافيا، ومن الجدير ذكره أن نقش مرنفتاح يعود إلى زمن سابق على تشكيل مملكة إسرائيل التوراتية، إذ إنه يعود إلى دولة أو مملكة إسرائيل الكنعانية التي تشكلت في محيط القرن الرابع، أو الثالث عشر قبل الميلاد، والتي قام مرنفتاح بإبادتها.

أما بالنسبة لبناء الهيكل فلا شك من أنه لم يكن له أي وجود حقيقي كما صوّر على أوراق التوراة، فلم يرد ذكره على لسان أي وثيقة تاريخية، وحتى التوراة لم تذكر حدوث أي نشاط ديني فيه، ولم تذكر التوراة أن أي نبي أو قاضٍ قد أتخذ منه مركزا أو مقرا لممارسة نشاطاته، وإن كان له وجود فعلي، فلم يتم بناؤه قبل القرن الثامن قبل الميلاد، وهو أيضا ليس أكثر من بناء بسيط قام محررو التوراة بصياغة مخططه المعماري اللغوي، على نمط المعابد البعلية الكنعانية، وتحديدا معبد بعل الذي تم اكتشافه في أوغاريت، وزادوا من ضخامته بعد أن رأوا أبهة المعابد والقصور في بلاد الرافدين، التي كانوا قد ذهلوا برؤيتها أثناء السبي، وما لهاث الحملات التبشيرية الآثارية في بحثها عن هيكل سليمان المزعوم إلا استجرار الظمأ وراء السراب.

وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخين التوراتيين دأبوا في الحديث عن مملكة داود، وسليمان التوراتية، كما لو أن وجودها التاريخي قضية لا تحتاج إلى أي أدلة لإثبات حقيقتها التاريخية، وفي هذا السياق يقول سوغن {مع تكوين مملكة متحدة تحت حكم داود، خرج تاريخ إسرائيل من مجال ما قبل التاريخ، أي التاريخ الميثيولوجي، ودخل ميدان التاريخ الحق، فالمملكة التي حكمها داود وسليمان هي الواقعة الأساسية التي نستطيع الانطلاق منها للبدء في البحث عن تاريخ إسرائيل بشكل صحيح}.

أما برايت فيقول {إن إسرائيل تحوّلت بشكل مفاجئ إلى أكبر قوة في فلسطين وسوريا، وربما كانت إسرائيل في تلك الفترة لا تقل جبروتا عن أي قوة عظمى في العالم

القديم.. كان داود سيدا على إمبراطورية مترامية الأطراف تضم عمون وسوريا في الشمال، وأدوم ومؤاب في الشرق.. إمبراطورية امتدت حدودها من خليج العقبة إلى البحر المتوسط، ومن وادي العريش إلى قادش على العاصي}.

أما نوت فيقول {أصبحت المملكة بنية سياسية شديدة التعقيد، وامتدت إلى حدود أبعد كثيرا من حدود الدولة الإسرائيلية، لقد أصبحت إمبراطورية فلسطينية - سورية اتحدت بشخص الملك، وضمت شعوبا عديدة ومختلفة.. إن نظام داود السياسي كان أول قوة عظيمة مستقلة في الأرض الفلسطينية السورية كما نعرفها، وقد ضمّت معظم فلسطين وسوريا، وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي، والطريف أنها كانت إنجاز شخص واحد ذكي وناجح بشكل غير عادي، وكان الوضع التاريخي العام في الشرق، في مصر وفي ما بين النهرين في مصلحة داود، إذ لم يكن هناك قوة أخرى أكبر منها تستطيع أن تعتدي على فلسطين وسوريا، وتفرض هيمنتها عليها}.

أما فون راد فيقول {إن المملكة الإسرائيلية كانت العصر الذهبي الذي أنتج أعمالا تاريخية، لم يكن بمقدور أي حضارة في الشرق الأدنى القديم الإتيان بمثلها}

إن الخطاب الإعلامي الأركيولوجي الذي تبناه الغرب المسيحي (البروتستانتي على وجه الخصوص) والذي كان ذاتيا في بدايته، تبدل قليلا في مرحلة وسيطة نحو الموضوعية، لا سيما بالنسبة لنتائج البحث الأركيولوجي المتعلقة بمرحلتي الدخول العبري، والمملكة المتحدة التي لم يرد لها أي ذكر في حوليات الحضارات التي تزامنت معها، لا سيما وأن نتائج البحث لم تسعف المتعطشين إلى ما يضيء تلك الفترة بشكل واضح، ولذا فقد بقيت معطيات البحث الأثري العلمي تتنازعه وتتجاذبه صراعات سياسية معقدة، تزيد من تعقيد كتابة التاريخ بصورة علمية نزيهة، وهي النقطة الأهم التي لا يمكن تجنيب أو تحرير كتابة التاريخ من قوة ضغط هذا المفهوم السياسي.

يقول الباحث البريطاني فيليب دايفز منتقدا الخطاب الذاتي للدراسات التاريخية التوراتية البحثية {- إنها - مجرد إعادة لصياغة التفسير التقليدي اليهودي لقصص التوراة، مع تغليفها بقشرة براقة من العقلانية. ولا تعدو انعكاسا للتجربة المعاصرة فحسب}.

وفي موقع آخر يقول {إن الدوافع اللاهوتية تكمن وراء الفشل حتى الآن في تنسيق النص التوراتي في كل مترابط.. إن قيمة الروايات التوراتية بالنسبة - إليها - تكمن في كونها شاهدا على الفعل المقدس في التاريخ،.. إن الإصرار على ربط إسرائيل التوراتية بإسرائيل التي نعرفها من التاريخ، قد ربطها بالمجال المعرفي لعلم الآثار، وترك الكتاب المقدس هشا أمام النقد، فإذا ما تهاوى البرهان الأركيولوجي تهاوى معه اللاهوت الذي ربط نفسه بالأركيولوجيا} {على أن الباحثين الراديكاليين الذين عملوا على التفريق الواضح بين إسرائيل التوراتية وإسرائيل التاريخية، قد جعلوا الفرصة متاحة من أجل إعادة القيمة الدينية للنص التوراتي.. فالغاية الحقيقية للمرويات التوراتية، والحالة هذه، تكمن في شكلها الأدبي والفلسفي واللاهوتي، لا في مدى تطابقها أو تعارضها مع التاريخ} {إن إسرائيل التوراتية هي تصور أدبي خيالي، ولكنها مع ذلك تتمتع بإطار مكاني جغرافي واقعي}.

أما الباحث توماس طمسن فقد نوه، بعد فشل الأبحاث الأركيولوجية في إيجاد التوراة تحت التراب، إلى أن خطاب الماضي، إضافة إلى خطاب التراث والفلكلور، لا همَّ له سوى إبلاغ الحكمة، وتمتين الروابط الاجتماعية ضمن الأنا الجمعية، وهو لا يأخذ باعتباراته

الزمكان الذي يشكل القاعدة الأساسية للتاريخ، وقد أكد أن الحقائق الآثارية كشفت لاتاريخية التوراة، وذلك لا يعني زيف الكتاب كما أن ذلك لا يقلل من قيمته اللاهوتية.

ولكن نتائج البحوث الأركيولوجية فندت مقولات من كان يتخذ من التوراة وثيقة تاريخية ليمرر من خلالها خطابه الاستعماري، وأظهرت أن العالم الغربي كان مضللا حين كان يعتقد أن العهد القديم هو الممثل الوحيد لتراث الشرق الأدنى القديم، يقول توماس طمسن في نقده للخطاب الذاتي: {إننا فقط نعيد اكتشاف ما نحن قادرون على الاعتراف به. إن قبولنا لأنفسنا بوصفنا أسياد التاريخ يأتي بثمن: إنه ثمن هوية الماضي. هذا المنظور المستغرق في الذات، الذي يميز النزعة التاريخية الأوربية، ينعكس اليوم في أفكار التطور المتدرج التي اضطلعت بدور مركزي في رؤية الدراسات الأوربية اللانقدية للماضي بوصفه تحضيرا لأجل أوربة المسيحية}، وبشكل عام فهو يرى أن إسرائيل التوراتية (المملكة المتحدة) ما هي سوى {صرح ذهني بُني على قراءة خاطئة متحيزة للتراث التوراتي، ومنفصلة تماما عن الحقيقة التاريخية}.

يقول شانكس حول نتائج البحث الأركيولوجي لمرحلة الدخول والاستيطان العبري في أرض كنعان {إن للتوطن في مرتفعات كنعان في العصر الحديدي الأول أهمية خاصة لأن أماكن التوطن هذه قد اعتبرت إسرائيلية، والناس يريدون أن يعرفوا ماذا حدث هنا؟، وماذا يعني كونها إسرائيلية؟ وحتى لو لم يكن هؤلاء إسرائيليين فإن لهم أهمية كبيرة بالنسبة إلينا، مثلما هي أقوام العصر البرونزي الرابع، ولا يعني ذلك أننا غير مهتمين، ولكنه لا يعني أننا سنكون أقل اهتماما فيما لو كانوا إسرائيليين، وباختصار نحن نريد أن نعرف ما الذي تستطيع تلك الأدلة كلها - وهناك كمية كبيرة منها - أن تخبرنا عن إسرائيل؟}.

أما كاثلين كينيون فتقول مفندة المقولة التوراتية لمرحلة يشوع التوراتية (مرحلة الدخول العبري) دون أن تكون حاسمة في تكذيب الادعاء التوراتي بشكل جلي {إن إحدى الصعوبات الرئيسية في تحديد توقيت دقيق لدخول الإسرائيليين إلى فلسطين هي عدم وجود أي إشارة أثرية تسمح لنا بالقول بأن هناك برهانا ماديا عن وصول شعب جديد}.

وتتابع {لا بد من التسليم بأن المجموعات الإسرائيلية التي كانت تصل إلى فلسطين هي من البدو الرحل.. ولقد اقتبسوا لدى تمركزهم كل ما لدى سابقيهم في هذه الأرض من أدوات ووسائل}.

ويؤكد جيمس ريتشارد {إن التناقضات الواضحة التي كشف عنها نتائج التنقيب الأثري في أريحا وغيرها من المواقع التي تحدث عنها سفر يشوع تدل على أننا نسير في طريق مسدود في محاولة العثور على شواهد أثرية لإثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية}.

أما ليتش فيقول مزاوجا بين نتائج البحث الأركيولوجي الموضوعي، وبين ذاتيته المسيحية حول مرحلة المملكة المتحدة، وحول الملكين داود، وسليمان {أنا شخصيا أرى ذلك غير قابل أبدا للتصديق، ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين البطلين أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولولا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضا بالتأكيد}.

أما الباحث الإسرائيلي أميحاي مزار فيقول {مما يدعو إلى السخرية أنه ليس لدينا إلا القليل جدا من البقايا الآثارية عن الفترة الداودية، ليست هناك معالم أثرية يمكن اعتبارها بصدق معالم داودية}.

أما كينيون فتقول من وجهة نظر توراتية متوازنة تقريبا {إن مملكة إسرائيل الموحدة لم يكن لها من الزمن أكثر من ثلاثة أرباع القرن، وكانت تلك هي المرة الأولى التي كان فيها اليهود في موقع قوة سياسية ذي أهمية في آسيا الغربية، وأمجادها مسجلة باعتزاز في التوراة، وقد أثر استذكار ذلك، بعمق في الفكر اليهودي، إلا أن الأدلة الآثارية عن هذه الفترة ضئيلة إلى أقصى الحدود}.

أما توماس طمسن فيقول متهكما: {من المؤكد أن ملكنا الفيلسوف سليمان ما هو إلا إسكندر ناطق بالعبرانية}.

ويتابع {تعكس قصص العصر الذهبي للملكية المتحدة خيال وطموحات أورشليم الميكابيين. ومن الصعب أن تعود صورة هذه المملكة الوحيدة المحكومة من أورشليم في التاريخ إلى زمن أسبق من هذه الفترة}.

أما الباجث الفرنسي بيير روسي فيقول {إن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع للعبرانيين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق، فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير تكشف أثرا قليلا للعبرانيين، فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية أو مكتبة رأس شمرا أو نينوى.. في ذلك تذكر كلمة (عبرية)، وأشهر ملوك التوراة وهما داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك أبدا ذكر للملحمة وللوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين، وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٩٠ - ١٩٢٥م، فالعدم كامل مثلما هو قطعي جازم}.

تقول عميدة اللاهوت البروتستانتية فرانسوا سميث سنة ١٩٨٤ {إن البحث التاريخي قد رد إلى مجرد الوهم، تلك التصورات التقليدية عن الخروج من مصر، وغزو بلاد كنعان، والوحدة القومية الإسرائيلية قبل المنفى، والحدود الدقيقة، إن الوصف التاريخي التوراتي لا يعلمنا عما يرويه شيئا، ولكن يعلمنا أشياء وأشياء عن الذين صنعوه}.

وقد تعالت احتجاجات بعض أصوات المؤرخين الغربيين الذين أدركوا مقدار التعسف الذي يمارسه الباحثون والمؤرخون التوراتيون في ربطهم ما بين الحاضر، والماضي، ومن هؤلاء المفكر الإنكليزي جيفرز الذي يقول {لقد استوطن الكنعانيون فلسطين منذ عصور ما قبل التاريخ. وكنعانيو فلسطين والساحل السوري كانوا في الأساس إحدى الموجات التي تدفقت من الصحراء العربية. وعندما جاء العرب المسلمون في الموجة الأخيرة انصهروا مع سكان فلسطين الأقدمين. ومن الطبيعي أن عرب فلسطين اليوم هم أحفاد تلك الأقوام أو المجتمعات التي عمرت فلسطين تاريخيا وحضارة من بداية التاريخ. ومن الجلي لكل ذي بصيرة أن جذورهم في هذه الأرض هي الجذور عينها التي نشأ منها التاريخ في حد ذاته}.

ويضيف جيفرز {أن امتلاك الكنعانيين والفلسطينيين لهذه الرقعة من الأرض قد بدأ قبل خمسة آلاف سنةٍ، ولم ينقطع عنها في يوم من الأيام حتى يومنا هذا، إنه أقدم امتلاك على ظهر الأرضٍ، أشده رسوخا في التربةٍ، في حين أن الدولة اليهودية المزعومة قامت وتألقت

وطنطنت بمقدار عمر برغشةٍ، ثم تلاشت، فكيف يكون امتلاك سريع الزوال، مقطع الأوصال، كامتلاك الإسرائيليين لبعض مرتفعات فلسطين، ملزما لنا بأن نعطيهم حقا مشروعا في أن يزيحوا العرب من ديارهم، بعد تسعة عشر قرنا مرّت على اختفاء آخر ظل لشعلة السلطة الذاوية}.

ويضيف أيضا {إن الصهاينة بدؤوا بإعادة بناء وطنهم القومي في مكان لم تطأ أقدام أجدادهم معظم أجزائه، فصهاينة إسرائيل يملكون السهول بمؤازرة بريطانيا الحاضن وأمريكا المرضع، وقد أصبحت أهم مستعمراتهم وأكبرها في سهول وأغوار لم تطأها أقدام أسلافهم، الغزاة القدماء، حتى داود في أوج حكمه ومجده لم يستطع الوصول إليها، فأرض تل أبيب الحاضرة وسهول عكا وحيفا الكنعانية، وغزة وأشقلون وأشدود ويافا الفلسطينية، لم يصل إليها الغزاة اليهود في يوم من الأيام}

ويضيف جيفرز {إذا كان اضطهاد اليهود في أوربا عارا صارخا وسبة في جبين الأوربيين، فإن فرضهم على الفلسطينيين، ومساعدتهم في استيطانهم أرض فلسطين، أقذر من عار وأشنع من سبّة}

أما الكاتب الإنكليزي ويلز فيقول {إذا كان من الصائب إعادة تأسيس دولة يهودية لم تكن موجودة لمدة ألفي عام، فلماذا لا نعود ألفاً آخر إلى الوراء، ونعيد تأسيس دولة كنعانية؟ فالكنعانيون، بخلاف اليهود، استمروا مترسخين في تربة فلسطين عبر التاريخ}.

ويقول السير جيمس فريزر {إن الفلسطينيين المعاصرين الناطقين بالعربية هم أحفاد الأقوام أو المجتمعات التي امتلكت فلسطين منذ بداية التاريخ، وظلت أقدامهم ثابتة في التربة منذ تلك العصور، وقد توالت عليهم موجات الغزو المتعاقبة التي طغت على بلادهم، ولكنها لم تنجح في القضاء عليهم}.

ويقول السير ريتشارد تمبل {إن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية، هم الأحفاد الأصلاء للكنعانيين، يبدو أنهم لم يتحولوا إلى المسيحية في أيامها الأولى بأعداد كبيرة، بل أقاموا على عباداتهم القديمة حتى جاء محمد فتحولوا إلى الإسلام بحد السيف، وظلوا على هذا الدين إلى يومنا هذا}.

ويقول اليهودي موشيه منوحن {نعرف من خلال التوراة أن الكنعانيين استوطنوا فلسطين منذ ما يزيد على أربعة آلاف سنة، وأن أغلب العرب الفلسطينيين الذين يعيشون اليوم في الخيام والأكواخ في مخيمات خارج حدود وطنهم، يتحدرون من هؤلاء الكنعانيين.. وقد مر على هؤلاء الكنعانيين، أي عرب فلسطين غزاة كثيرون تحكموا ببلادهم إلى حين، ثم ارتحلوا عنها، أما الكنعانيون فظلوا متجذرين في أرضهم، وكان اليهود بين الغزاة الذين دخلوا فلسطين وأقاموا فيها مملكتين، ثم ارتحلوا عنها.. وقد اعتنق بعض الكنعانيين في فلسطين الدين المسيحي، وعندما بدأت الفتوحات الإسلامية، آثر عرب فلسطين الدخول في الدين الجديد، ومنذ ذلك العهد البعيد ظل عرب فلسطين هم الأكثرية الساحقة في البلاد، وأصحابها الشرعيين}

ويقول منوحن أيضا {لماذا نضطهد وننفي ونستولي على بيوت وأراضي الناس الذين كانوا يحسنون معاملتنا؟، وكانوا طوال السنوات الألف والخمسمائة الأخيرة من التاريخ هم وحدهم الذين احتضنوا اليهود بين أبنائهم، ورحبوا بهم بين ظهرانيهم، في وقت كان اليهود يفرّون من الاضطهاد من ديار إلى أخرى}.

وكفقرة أخيرة يمكن أن نستشهد بما قاله المؤرخ الشهير ول ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة) {إن التعصب الإقليمي الذي ساد كتاباتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقا ذريعا في تصوير الواقع، ونقصا فاضحا في ذكائنا}.

وبما قاله كيث وايتلام في كتابه المهم (اختلاق إسرائيل التوراتية) {يتحول الصراع على الماضي إلى صراع على الحاضر، من خلال ابتكارات خيالية لماض يعاد بناؤه بشكل تعسفي}، ولكن السياسة الصهيونية الإسرائيلية القائمة على إعادة تشكيل الماضي المتخيل الافتراضي، غير متنبهة، أو أن لديها عمهاً منطقياً استقرائياً، لأنها ستتعرض إلى نفس النهاية المأساوية للماضي المتخيل في مرحلة الملوك المؤسسين، وللماضي المتحقق في مرحلتي انقسام المملكة التي انتهت بالسبي البابلي، والمرحلة الرومانية والتي انتهت بالشتات اليهودي في أرجاء العالم، لأن السياسة الإسرائيلية الصهيونية لم تأخذ بالحسبان حركية الروح المفترضة للماضي المتخيل، والتي تمضي إلى نهايتها دون أن تقوم السياسة الراهنة بمعالجتها كي تضمن لنفسها أن لا تسير إلى نفس النهاية في الماضي المتخيل الافتراضي.

وفي النهاية، وبعد أن بدأت أصوات عالمية متعددة تدعوا لتحرير التاريخ من إسار الفكر الديني الأسطوري للتوراة، لا سيما بعد أن بدأ البحث الآثاري يشكك في الكثير من المقولات التوراتية، بل ويرفضها، يتوجب على القطب العربي الإسلامي أن يواكب، وأن يقدم لتلك الأصوات كل ما يمكنه أن يمدها بالقوة، ويجعلها تعتلي أعلى المنابر الخطابية الموازية ارتفاعا للمنابر الصهيونية.

وعلى الإعلام العربي أن يتنبه تماما، إلى الخطاب الغربي وإلى تحولاته، وأن يدرس الأسباب التي تؤدي إلى نقص الحماس عند الباحثين عن الحقيقة، وإيجاد المعالجة المناسبة التي تفعّل هذا الحماس، بالنسبة للمؤرخ الباحث عن الحقيقة، والخارج عن هيمنة اللاهوتيين الذين يُعَدّون أن التوراة هي النواة المركزية للتاريخ الإنساني، وذلك لأن اليهود هم الذين شكلوا الوعي الأساسي الإنساني، ولذلك يبدأ التاريخ الإنساني بهم، وكل ما كان قبلهم هو ما قبل التاريخ، أو المرحلة الجاهلية للتاريخ.

وبما أن إحدى ركائز الصهيونية هو إعادة تشكيل التاريخ الماضي الوهمي، فيجب أن ترتكز النظرية العربية للوقوف في وجه الصهيونية على دك هذه الركيزة، بمقدار ما تسعى إلى المشاركة في صناعة، وصياغة التاريخ السياسي العسكري الحضاري الحاضر.